المواربة في لغة الكتابة السياسية

دراسة في كتاب "أم القرى" لعبد الرحمن الكواكبي

نورهان عبدالرءوف أحمد

هذا البحث هو محاولة لاستنطاق أحد أبرز الكتابات السياسية العربية في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين الميلادي؛ عما طواه بين ثناياه من مظاهر لتطويع اللغة العربية وأدواتها الخطابية؛ بوصفها سلاحًا بأيدي أبنائها في نزالاتهم الفكرية والسياسية؛ بين الكر والفر والمراوغة.

فهو يسعى إلى رصد عناصر المواربة في لغة المعارضة السياسية العربية للحكم العثماني؛ كما تمثلت في كتاب "أم القرى" لعبد الرحمن الكواكبي (ت ١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م)؛ الذي آمن صاحبه بالشأن الكبير الذي تحظى به الكلمات في النزاعات السياسية؛ فقال في مقدمته:

فإن الذي شادته أسياف قبلكم هو اليوم لا يحتاج إلا لألسنِ

وينتمي البحث إلى مجال دراسات تحليل الخطاب التي تَعد الخطاب ممارسة اجتماعية، وتربط النصوص بسياق إنتاجها والغرض منه. ويفيد بطبيعة الحال من المفاهيم والإجراءات الخاصة بكل من الحقل التداولي الذي يدرس اللغة قيد الاستعمال، ومنظور التحليل النقدي للخطاب الذي يبحث عن مكامن صراع القوى والأيديولوجيا في الخطاب.

- **مفهوم المواربة Equivocation:**

يقصد بالمواربة في البلاغة العربية "أن يقول المتكلم قولًا يتضمن ما ينكَر عليه، فيستعد لما يتخلص من الإنكار بجواب حاضر أو حجة بالغة، أو تصحيف كلمة أو تحريفها أو زيادة أو نقص"[١]، وقد نظر إليها البلاغيون العرب من جهة قدرة المتحدث على التحايل للتخلص من الموقف المنكر عليه؛ فعدوها لونًا من ألوان البديع، في حين لم يهتموا كثيرًا بقيمتها التداولية والتواصلية.

أما في المفهوم الحديث فإن المواربة قد تقع في مختلف عناصر العملية التواصلية؛ المرسل أو المستقبل أو المحتوى أو السياق، فالمواربة في معناها التداولي هي الانحراف عن العناصر الأساسية للتواصل الصريح[٢].

- **السياق التاريخي لكتاب "أم القرى":**

لا يمكن دراسة المواربات اللغوية –شأنها شأن كافة الظواهر اللغوية ذات المقصد التداولي– بغير الرجوع إلى سياق إنتاج النص الذي يحملها؛ حيث إن الدافع الأساسي لورودها هو وقوع المرسِل فيما يعرف في علم النفس بصراع الإحجام –الإحجام avoidance conflict – avoidance؛ أي وقوفه أمام خيارين كل منهما له عواقب سيئة – هما في حالة التواصل اللغوي إما الكذب والإخفاء التام لمحتوى ما،

أو إرسال رسالة مباشرة تضر بأحد طرفي التواصل –؛ فيسعى المرسل إلى تجنب كلا الخيارين واللجوء إلى المواربة[٣]، وهو ما وجد الكواكبي نفسه مضطرًا إليه في معظم كتاباته ومنها "أم القرى".

يرجح أن عبد الرحمن الكواكبي قد كتب أم القرى في حلب قبل انتقاله إلى القاهرة (بين عامي ١٣١٦ و١٣١٨هـ)[٤]، لكن الكتاب لم يُنشر إلا بعد استقراره في القاهرة في مأمن نسبي عن النفوذ العثماني الذي كان يواجهه؛ إذ طبع للمرة الأولى في ١٣١٨هـ /١٩٠٠م[٥].

في مقدمة الكتاب نفسه يحدد الكواكبي تاريخ الأحداث التي يغطيها بسنة ١٣١٦ للهجرة، وبشكل عام فإن الإطار التاريخي لكتابات الكواكبي هو عهد السلطان العثماني عبد الحميد الثاني. وقد كان للأوضاع السياسية التي سادت هذا العهد أثرها في موضوع الكتاب وشكله على حد سواء؛ فقد شهد هذا العهد إثارة فكرة الجامعة الإسلامية والخلافة الإسلامية وتعدد مواقف المذاهب فيها وموقع الدولة العثمانية منها، ومحاولة كل من السلطان عبد الحميد وخصومه في الداخل والخارج تطويعها لصالحهم؛ تزامنًا مع الأوضاع الاستعمارية في البلاد الإسلامية والمخططات الأوروبية الساعية إلى تقسيم التركة العثمانية، أو تركة الرجل المريض كما أطلق عليها[٦].

يضاف إلى ذلك توتر العلاقة الشخصية بين الكواكبي وبعض خاصة رجال السلطان عبد الحميد؛ إذ كان على خلاف مع شيخ مشايخ الدولة العثمانية أبي الهدى الصيادي "الذي انتزع نقابة الأشراف من بيت الكواكبي بغير حق من حقوق النسب أو الفضل أو الكفاية"، والذي كان "ينال غاية ما ينال من ألقاب العلم والشرف ويتشفع عند ولاة الأمر لمن يطمع في نيلها وهو من الجهل بالكتابة بحيث يستكتب المحاسيب ما ينسبونه إليه"، وكان يتحكم في مناصب القضاة والمفتين والولاة والرؤساء – على حد قول العقاد[٧]، وما يوافقه من تلميحات للكواكبي نفسه –.

كما كان للكواكبي خصومات مع الولاة العثمانيين في حلب؛ تمثلت في مصادرة الصحيفتين اللتين كان يصدرهما "الشهباء" و"الاعتدال" على التوالي، إلى جانب إيداعه السجن تارة بتهمة المشاركة في محاولة اغتيال الوالي، وأخرى بتهمة التعاون مع دولة أجنبية، ومضايقته في تجارته؛ حتى غادر حلب إلى القاهرة بعيدًا عن سلطة الولاة العثمانيين[٨].

- **ملامح المواربة في كتاب "أم القرى":**

أ. ملامح المواربة عبر المستوى التواصلي:

وهو المستوى المرتبط بالعلاقة بين طرفي التواصل الخطابي؛ المرسل والمتلقي. ويمكن تمييز تقنيات المواربة عبر هذا المستوى في كتاب "أم القرى" كما يلي:

١ – القناع المستعار للمرسل:

"السيد الفراتي"، هذا هو الاسم المستعار الذي استعان به السيد عبد الرحمن الكواكبي في نشر كل كتاباته في حياته؛ ومن ضمنها كتاب "أم القرى". غير أن له في أم القرى موقعًا خاصًا أيضًا؛ فهو ليس

مجرد توقيع يحمله الكتاب من الخارج، بل هو راوي الأحداث ومحركها داخل الكتاب، والكاتب الرسمي لمناقشات المؤتمر التي يعرضها الكتاب.

بالإضافة إلى الغموض الكامن في مبدأ استخدام الاسم المستعار بحد ذاته؛ فإن اختيار صيغة الاسم له كذلك دوره في تحقيق المواربة؛ فصفة "الفراتي" لا تحدد تمامًا موطن الكاتب؛ إذ يمتد نهر الفرات في منطقة جغرافية واسعة بين الشام والعراق، بل هو في الأدبيات العربية أكثر ارتباطًا بالعراق منه إلى بلاد الشام.

٢- تعدد المرسلين داخل النص وتفريق مسئولية إنتاجه:

يكاد يجمع الباحثون على أن مؤتمر أم القرى محور الحديث في الكتاب إنما هو من محض خيال الكواكبي[٩]. ومن خلال هذا المؤتمر المتخيل اعتمد الكواكبي حيلة تعدد الأصوات المتلفظة داخل النص؛ فلم يضع أفكاره كلها على لسان شخصه، بل وزع تلك الأفكار بما تحمله من نقد للأوضاع السياسية والإدارية على ألسنة عديد من الشخصيات التي جعلها مساهمة في أعمال مؤتمره.

وبهذا يرد في الكتاب ثلاثة أنماط من المرسلين وفق تقسيم ديكرو Oswald Ducrot [١٠]:

الأول: هو الذات المتكلمة خارج النص، وهو الكواكبي نفسه، الذي كان مغيبًا تمامًا عن سياق إنتاج النص، متواريًا خلف قناع السيد الفراتي.

الثاني: هو السيد الفراتي المتكلم المشارك في النص؛ أي في مداولات المؤتمر. وهو عنصر خطابي شبيه بالراوي المشارك في الأعمال السردية؛ فهو صاحب فكرة المؤتمر ومحرك أحداثه، وهو أيضًا مدون سجله؛ فكل ما قيل هو بشكل أو بآخر مسند إلى روايته ومدون بلغته؛ في مراوحة متقنة بين تحمل مسئولية النص والتنكر لها في آن واحد.

أما **النمط الثالث** فيتمثل في مجموعة المتلفظين الذين لا تتحقق كياناتهم إلا داخل النص من خلال ما يرويه السيد الفراتي عنهم.

وقد نوع الكواكبي في اختيار أعضاء المؤتمر الذين وزع على ألسنتهم وجهات النظر التي يتناولها؛ فقد "جمع فيه مندوبين ينوبون عن أمم العالم الإسلامي في المشرق والمغرب يمثلون الهند والصين والأفغان والعراق والحجاز والشام ونجد واليمن ومصر وتونس ومراكش وغيرها من الأقاليم المشتركة بين هذه الأقطار، وألقى على لسان كل منهم خطابًا يشرح حالة المسلمين كما اختبرها من شئون بلده ومما يعلمه عن شئون سائر البلدان الإسلامية"[١١]. كما ضم الكواكبي إلى أعضاء مؤتمره مندوبين عن بلاد غير إسلامية مثل "السعيد الإنكليزي" ممثل المسلمين في إنجلترا.

إلى جانب تنوع المتلفظين المشاركين في مداولات المؤتمر تجدر الإشارة إلى نقطتين رئيستين أخريين في عملية المواربة الخطابية المتعلقة بمسئولية ما يقال:

أولًا: لم يقتصر تعدد الأصوات المرسلة في نصوص الكتاب على تعدد المندوبين المشاركين في الاجتماعات، بل يشمل كذلك أصواتًا أخرى يتم إقحامها بالرواية عنها خلال سجل المؤتمر. من ذلك المحادثة التي ينقلها "الخطيب القازاني" بين مفتي قازان ومستشرق روسي أسلم حديثًا؛ يلاحظ في روايتها الميل إلى آراء المستشرق وأخذه على المسلمين اتباع التقليد التام في أمور دينهم، ومنها كذلك المحاورة الملحقة بسجل المؤتمر؛ التي بعث بها "الصاحب الهندي" مثبتًا فيها محاورة جرت بينه وبين "أمير جليل فاضل من أعاظم نبلاء الأمة ورجال السياسة" – وفق ما جاء في وصفه في اللاحقة –، وقد ورد على لسان هذا الأمير المسكوت عن اسمه نقد شديد الحدة للدولة العثمانية وأهم سلاطينها؛ حتى إن السيد الفراتي حين يذكر سبب إلحاقه المحاورة بسجل المؤتمر يقول إنه ألحقها "تنويهًا بشأن حضرة الأمير المشار إليه، وشكرًا على غيرته وتبصيراته، وافتخارًا بحسن ظنه ونظره في هذا العاجز، وتبشيرًا لجنابه وللمسلمين بأن جمعية أم القرى قد أحكم تصورها وتأسيسها"، ولم يذكر ضمن كل هذه الأسباب صحة اتهامات الأمير للعثمانيين أو اقتناع الفراتي بها.

ثانيًا: اختار الكواكبي "للسيد الفراتي" الذي يمثل صوته المباشر داخل النصوص دور كاتب المؤتمر، واختار دوره في الحديث في ختام المتحدثين مطولًا؛ فضمن بهذا لأقواله صفة التلخيص أو الاستنتاجات مما دونه من أقوال غيره. وهو ما عبر عنه بقوله: "وإني أقرأ عليكم خلاصاتها من جدول الفهرست الذي استخرجته من مباحث الجمعية".

على الرغم من هذا؛ فقد كانت الإضافة في كلمة "السيد الفراتي" هي الصوت الأكثر صراحة بين الأعضاء في نقد السياسات الإدارية للدولة العثمانية وسلاطينها؛ حتى إنه في نهاية حديثه يتوجه بالكلام إلى "المولى الرومي" ممثل أهل القسطنطينية قائلًا: "أرجو المعذرة من المولى الرومي لأنه يعلم أني ما فرطت، ولولا الضرورة الدينية التي يعلمها لما صرحت، والناصح الغيور من يبكيك لا من يضحكك". كما أنه يثبت اعتراض بعض الأعضاء على غلوه في مهاجمة الدولة العثمانية؛ فيذكر نقلًا عن "الصاحب الهندي" أن أحد أعضاء الجمعية "لما رأى السيد الفراتي يميل للتنقيب عن سياسة العثمانيين، واستمالة الجمعية عليهم لا لهم، ذكر له ذلك مرة متلومًا، وقال له: ألا ينبغي ستر أحوالهم والمدافعة عنهم، لأنهم أعظم دولة إسلامية موجودة".

فالكواكبي يعود ويُحَمِّل صوته الخاص القسم الأكبر من نقد العثمانيين، وكأنه لم يرد أن يتحمل غيره مسئولية أفكاره الخاصة الصريحة، وإنما أراد من حيلة المؤتمر وتعدد أصواته أن يتفرق دم الدعوة الرسمية إلى نزع صفة الخلافة عن العثمانيين بين القبائل –كما يقال–. لكن هذا الاحتراز بذاته يوحي بأن الأصوات المقحمة داخل النص لم تكن محض خيال من الكاتب وحسب؛ مما يرجح الرأي القائل بأن الكواكبي قد جمع في "أم القرى" نتائج تحقيق واستفتاء واسع المدى خلال رحلاته ومقابلاته في بلاد

المشرق[١٢]. ويذكر العقاد أن الكواكبي قد أخبر صديقه السيد محمد رشيد رضا بأن "للجمعية أصلًا وتوسع في سجله، وعاوده غير مرة بالتنقيح والحذف والزيادة"[١٣]، ثم يضيف: "فلا بد أن يكون المؤلف قد التقى في بلده بأناس من فضلاء المسلمين الذين يترددون عليه في طريق الحج فذاكرهم في مسائل الدين ومصالح المسلمين وسمع منهم وأسمعهم ما عنده من الآراء والمعلومات في هذه الشئون"[١٤].

ب. ملامح المواربة عبر المستوى التنظيمي:

١- البنية التنظيمية العليا:

تعرف البنية العليا للنص بأنها: "نوع من المخطط المجرد الذي يحدد النظام الكلي لنص ما"[١٥]، وهذه البنية العليا –كما يقول توين فان دايك Teun A. van Dijk – لا تكون جزافية، بل تعكس وظائف إدراكية أو براجماتية أو اجتماعية في الاتصال النصي[١٦].

كان المفترض عند طرح موضوع "أم القرى"؛ وهو البحث في أسباب الخلل والضعف في بلاد المسلمين؛ أن يتخذ الكتاب بنية البحث العلمي القائمة على طرح المشكلة ثم الحل[١٧]، لكن الواضح أن نصوص الكتاب خرجت عن ذلك؛ فجمعت مجموعة من البنى الأخرى؛ تبدأ ببنية سردية يحكي فيها "السيد الفراتي" خلاصة رحلاته في الدعوة إلى المؤتمر، ثم تنتقل إلى بنية التقارير والمداولات المؤسسية التي أكسبتها قوة رمزية لكيان اعتباري يتجاوز الطابع الفردي؛ وبالتالي المسئولية الفردية.

هكذا يبدأ الكتاب بتنبيه يحدد المتلقي الذي يوجَّه إليه الكتاب؛ بالقول: "فإن كنت من أمة الهداية وفيك نشأة حياد ودين وشمة مروءة، فلا تعجل بالنقد حتى تستوفي مطالعتها وتعي الفواتح والخواتم، ثم شأنك ورأيك. أما إذا كنت من أمة التقليد وأسراء الأوهام، بعيدًا عن التبصر، لا تحب أن تدري من أنت، وفي أي طريق تسير، وما حق دينك ونفسك عليك، وإلى ماذا تصير، فتأثرت من كشف الحقائق ودبيب النصائح، وشعرت بعار الانحطاط وثقل الواجبات، فلم تطق تتبع المطالعة وتحكيم العقل والنقل في المقدمات والنتائج، فأناشدك الإهمال الذي ألفناه أن تطرح هذه المذاكرات إلى غيرك ليرى رأيه فيها"[١٨].

ومن الواضح أن السمات التي يحددها الكاتب لمتلقيه المنشود ليست للحصر والاستبعاد، بقدر ما هي للجذب والاستنفار؛ فالشرط في كل من "فإن كنت من أمة الهداية..." و"أما إذا كنت من أمة التقليد..." إنما يؤدي فعلًا إنجازيًا توجيهيًا غير مباشر؛ إذ يزين الشرط الأول للمتلقي قراءة الكتاب وتدبره عن طريق ربطه بوصف مثالي محبب، في حين يشوه الشرط الثاني الإعراض عن الكتاب بربطه بعيوب في شخصية المُعرِض.

يلي التنبيه مقدمة سردية تعرض بداية تشكل فكرة الجمعية وهدفها؛ بصوت "السيد الفراتي"، الرحالة الراوي – كما تسميه د. ماجدة حمود[١٩] –، يقول: "فعقدت العزيمة، متوكلًا على الله تعالى، على إجراء سياحة مباركة بزيارة البلاد العربية، لاستطلاع الأفكار وتهيئة الاجتماع في موسم أداء فريضة الحج...".

ويلي المقدمة إثبات محاضر الاجتماعات الاثني عشر للجمعية، التي يتراوح إخراجها بين سرد أحداث المؤتمر وتحديد مكانه (مكة المكرمة) وزمانه (موسم الحج)، وإثبات مداولات أعضائه بنصوصها الكاملة، مع ذكر رقم الاجتماع وتاريخه.

ثم عُرض قانون الجمعية في الاجتماع الثاني عشر، وقد جاء بدوره مكوناً من مقدمة تلخص أفكار "جمعية تعليم الموحدين" التي انتهى المؤتمر إلى إنشائها، وأربعة فصول في تشكيل الجمعية ومبانيها وماليتها ووظائفها، ثم خاتمة عن سياستها.

وبعد محاضر الجلسات الاثنتي عشرة الأساسية يرد ذيل بقرار أخير من الجمعية اتُخذ في اجتماع الوداع، يختص أهل الجزيرة العربية بمسئولية حفظ الحياة الدينية في البلاد الإسلامية.

وفي نهاية الكتاب ترد اللاحقة التي تحمل رسالة "الصاحب الهندي" عن محاورته مع الأمير، ثم بعض التنويهات عن الاتصال بالجمعية وشفراتها.

ويرى العقاد أن الكواكبي قد "اجتهد في إتقان صورة المؤتمر السري بما له من المحاضر المسجلة والرموز المصطلح عليها وعلامات الأرقام التي يتفاهم عليها الأعضاء، لأنه أراد أن يتمم الصورة شكلًا على ما يظهر، أو أراد أن يوقع في روع القارئ ما يبعث عنده الثقة باجتماع العزم على العمل وقيام المؤتمرين على تنفيذه"[٢٠]. فاللجوء إلى البنية التقريرية يحقق كذلك غرضين في آن واحد؛ هما الإيحاء بقوة الفكرة ودخولها حيز التنفيذ من جهة، ونسبة المسئولية عنها إلى الكيان الجمعي؛ بما لا يسمح باتهام فرد بعينه فيها.

٢ – العنوان:

يعد العنوان في مجال تحليل الخطاب أداة إبراز تملك قوة على خلق التوقعات؛ فهي – كما يرى براون ويول Gillian Brown & George Yule – "لا تمدنا فقط بنقطة انطلاق نبني حولها كل ما يكمن في صلب الخطاب، بل إنها تمدنا كذلك بنقطة انطلاق تحد من إمكانات فهمنا لما يلحق"[٢١]. إن هذه القوة على خلق التوقعات بذاتها تفتح أمام المرسل أبوابًا متعددة للمواربة في كتابه؛ إذ تتيح له إمكانية التلاعب الحر بتوقعات المتلقين حول مضمون الكتاب.

لقد اختار الكواكبي عنوانه الأصلي متوافقًا مع التنظيم الرسمي المؤسسي لبنية الكتاب وطابعه التقريري؛ فوضعه تحت اسم "سجل مذاكرات جمعية أم القرى – أي مضبطة مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الإسلامية المنعقد في مكة المكرمة سنة ١٣١٦هـ".

لكن العنوان المختصر الذي طبع الكتاب وشاع به هو "أم القرى"، وبقدر ما تبدو دلالة هذا العنوان للوهلة الأولى متحجرة ومقتصرة على تسمية موضع علم هو "مكة المكرمة" مكان انعقاد المؤتمر؛ بحيث توجه الأذهان مباشرة إلى التفكير في البلدة أو في دلالتها الدينية وقيمتها التاريخية على أبعد تقدير، بقدر ما تنفتح في حقيقة الأمر على احتمالات واسعة من الدلالات.

إن هذه الدلالة المتحجرة للاسم في حد ذاتها حين توحي بانحصار موضوع الكتاب في المجال الديني تحقق عملية استلاب خطابي ضمنية لأهم المقولات التي يتبناها طرف السلطة الذي يعارضه الكتاب؛ أي الدولة العثمانية وما تسعى للاتسام به من دفاع عن كافة المسلمين وتحقق مفهوم الخلافة في سلاطينها.

كما أن دلالة المركب الإضافي على "مكة المكرمة" يمهد ضمنيًا كذلك لدعوة الكتاب – الموزعة على ألسنة عديد من شخصياته – إلى توجيه الولاء والبيعة إلى خليفة هاشمي من أهل الجزيرة، من خلال دلالة عنصريه "أم" مفردًا و"القرى" جمعًا، يقول ابن عاشور في تفسير الاسم: "وأم الشيء استعارة شائعة في الأمر الذي يرجع إليه ويلتف حوله"، ويقول: "وإنما سميت مكة أم القرى لأنها أقدم القرى وأشهرها وما تقرت القرى في بلاد العرب إلا بعدها، فسماها العرب أم القرى"(٢٢).

ولا يتضح توجيه دلالة العنوان إلى هذه التأويلات إلا بالاطلاع على ما جاء بالكتاب وفهمه، فالكواكبي بهذا يضمن لكتابه ألا يمنع أو يصادر بمجرد طبعه، فيضمن له على الأقل زمنًا للوصول إلى أيدي المتلقين وقدرًا مقبولًا من الانتشار.

ج. ملامح المواربة عبر المستوى اللغوي الأسلوبي:

١ – التعريض:

يعرف التعريض في البلاغة بأنه "المعنى الحاصل عند اللفظ لا به"(٢٣)، ويشرحه د. عبد الهادي الشهري بأنه "آلية لا يرتبط فيها اللفظ والقصد برابط لغوي، وإنما يعتمد في بيان قصده على إسهام عناصر السياق، التي يوظفها المرسَل إليه لفهم قصد المرسِل"(٢٤).

ويمكن استخلاص مجموعة من التعريضات الموظفة في الكتاب استنادًا على المعرفة بسياق إنتاجه، من خلال مجموعة قرائن منها:

أ. قرائن وصف الحال:

وقد تستنتج من موافقة الحال المذكورة، كما في وصفه لأحوال وممارسات بعض المتصوفة؛ التي كان أكثر شيوعها لدى الأتراك. من هذا قوله عن تغييرهم لمظاهر الدين على لسان "العالم النجدي"؛ الذي يمثل جزيرة العرب بعد انتشار الحركة الوهابية فيها وتحريمها بناء المشاهد والقباب والتبرك بساكنيها وتعظيم الأموات من الصالحين(٢٥)، يقول:

- "وزاد فيه المتأخرون بدعًا وتقليدات وخرافات ليست منه، **كشيوع عبادة القبور، والتسليم لمدعي علم الغيب والتصرف في المقدور**". (العالم النجدي)

ويقول أيضًا:

- "فمنهم الذين **استبدلوا الأَصنام بالقبور**(٢٦)، **فبنوا عليها المساجد والمشاهد**، وأسرجوا لها، وأرخوا عليها الستور، يطوفون حولها مُقبلين مستلمين أركانها، ويهتفون بأسماء سكانها في

الشدائد، ويذبحون عندها القرابين يهل بها عمدًا لغير الله، وينذرون لها النذور، ويشدون للحج إليها الرحال، ويعلقون بسكانها الآمال، يستنزلون الرحمة بذكرهم وعند قبورهم، ويرجونهم بإلحاح وخضوع ومراقبة وخشوع أن يتوسطوا لهم في قضاء الحاجات وقبول الدعوات، وكل ذلك من الحب والتعظيم لغير الله، والخوف والرجاء من سواه.

ومنهم من **استعوضوا**[٢٧] **ألواح التماثيل عند النصارى والمشركين بألواح فيها أَسماء معظميهم،** مصدرة بالنداء تبركًا وذكرًا ودعاء، يعلقونها على الجدران في بيوتهم، بل في مساجدهم أيضًا". (العالم النجدي)

ومن ذلك الأفعال المنسوبة إلى من يسميهم "المتعممين" و"الجهلاء"، ويقصد بهم شيوخ الدين المقربين من الحكام والسلاطين –وأول مثال لهم من الإلمام بسياق الكتاب ومؤلفه هو أبو الهدى الصيادي–، فقد أسهب في ذكر مسئوليتهم عن ممارسات بعينها وإصدار قوانين محددة؛ بما يوحي قطعًا بتعين المقصود أو مجموعة المقصودين بالوصف المذكور، من ذلك قول "المولى الرومي":

- "ومنهم جماعة لم يرضوا بالشرع المبين، **فابتدعوا أحكامًا في الدين سموها علم الباطن، أَو علم الحقيقة، أو علم التصوف،** علمًا لم يعرف شيئًا منه الصحابة والتابعون وأهل القرون الأولى المشهود لهم بالفضل في الدين". (المولى الرومي)

وجدير بالذكر أن الكواكبي قد وضع أكثر هذا النوع من التعريض بشيوخ السلاطين على لسان "المولى الرومي" ممثل أهل القسطنطينية في المؤتمر، وهذا يكسب قوله مزيدًا من المصداقية والثقة إذ يتحدث بوصفه شاهدًا خبيرًا بما يقول.

ومن ذلك أيضًا:

- "ثم إن هؤلاء المتعممين ما كفاهم هذا القانون، **فألحقوه** بقانون آخر سموه قانون "توجيه الجهات"؛ **جعلوا فيه التدريس والإرشاد والوعظ والخطابة والإمامة وسائر الخدم الدينية، كالعروض، تباع وتشرى، وتوهب وتورث، وما ينحل منها نادرًا عن غير وارث يبيعها القضاة لمن يريدون، ويتكرمون بها على المتملقين؛** وبهذا القانون انحصرت الخدم الدينية في الجهلاء والمنافقين". (المولى الرومي)

ومثل ذلك ما جاء على لسان الأمير المذكور في المساجلة الملحقة بالمحاضر:

- "كأن هؤلاء الغشاشين يريدون بهذه الدسائس أَن يجعلوا حضرة السلطان نظيرهم: دعِي نسب كاذب **كدعواهم لأنفسهم السيادة،** ومتسنم مقَام موهوم **كدعواهم الولاية والقطبانية في أنفسهم وآبائهم وأجدادهم؛** فيحشون في تلك المؤلفات أنسابًا انتحلوها لأنفسهم مقرونة بنسب حضرة السلطان؛ **ويستطردون لحكايات كرامات لأجدادهم** ملفقة مخترعة لا يعترفها لهم أحد من المسلمين، يدسونها بين حكايات ووقائع الخلفاء والسلاطين". (الأمير)

ويعلق د. محمد عمارة على هذا المقتبس الأخير بأن "التعريض هنا بالشيخ أبي الهدى الصيادي شيخ الإسلام في الدولة العثمانية على ذلك العهد، الذي أخذ نقابة الأشراف من بيت الكواكبي، وظل الكواكبي يشكك في صحة انتسابه لآل البيت، ومن ثم استحقاقه نقابة الأشراف"(٢٨).

وكما يمكن استنتاج التعريض من موافقة الكلام لقرائن السياق، يمكن استنتاجه من مخالفتها له وتضادها، مثل ذلك رد العالم النجدي على "الإمام الصيني":

- "**وليس في الصين ملوك كثيرة وأمراء جبابرة كما عند غيرهم، فالحكماء في الصين آمنون**؛ من جهة أخرى لم يزل الإسلام في الصين **حنيفًا خفيفًا، لم يفسده التفنن والتشديد**". (العالم النجدي)

فالتعريض هنا جلي بوجود نقيض الوصف المذكور في غير بلاد الصين.

ومن التعريض بالنقيض أيضًا:

- "وليعلم أن الناشئة الذين تعقد الأمة آمالها بأحلامهم عسى يصدق منها شيء، وتتعلق الأوطان بحبال همتهم عساهم يأْتون فعلًا مذكورًا، هم أولئك الشباب ومن في حكمهم المحمديون المهذبون، الذين يُقَال فيهم إن شباب رأي القوم عند شبابهم، الذين يفتخرون بدينهم **فيحرصون على القيام بمبانيه الأساسية نحو الصلاة والصوم، ويتجنبون مناهيه الأصلية نحو الميسر والمسكرات، الذين لا يقصرون بناء قصور الفخر على عظام نخرها الدهر، ولا يرضون أَن يكونوا حلقة ساقطة بين الأسلاف والأخلاف، الذين يعلمون أنهم خُلقوا أحرارًا فيأبون الذل والإسار**". (السيد الفراتي)

وفيه تعريض بمن يقبل نقيض الصفات المذكورة؛ وأبرزها قبول الذل والإسار.

ب. القرائن الزمانية والمكانية:

ومن مظاهرها قول "السيد الفراتي" في رواية رحلته:

- "فأتيت بلدة لا أسميها، وما أطلت المقام فيها حيث وجدتها كما وصف أُختها أَبو الطيب بقوله:

لم أر مثل جيـــراني ومثلي لمثلي عند مثلهم مقَام
بأَرض ما اشتهيت رأَيت فيها فليس يفوتها إلا الكرام

فَخرجت منها سالكًا الطريق البحري من إسكندرون معرجًا على بيروت...". (السيد الفراتي)

فهو يُعَرِّض هنا بمعنيين معًا؛ الأول المدينة التي لا يسميها، وهي تُستنتج ضمنًا من القرائن المكانية في المنطوق؛ إذ يظهر أنها القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية، والثاني عدم ارتياحه لها فلا أطال البقاء فيها، ولا يريد أن يذكر اسمها. عن هذا يقول د. محمد عمارة: "لقد عنى الكواكبي هنا عاصمة الدولة العثمانية، وتعبيرًا عن كراهيته للأتراك وسيطرتهم على مقدرات العالم العربي، وذلك بدليل مغادرته هذه البلدة "التي لا يسميها" عن طريق "إسكندرون" وهو الميناء العربي – قبل اغتصاب الأتراك له سنة ١٩٣٧

م – المجاور للأرض التركية في شمالي سوريا، ومراجعة أحداث هجرة الكواكبي من حلب إلى مصر، وخروجه من بلده تحت ستار الذهاب للعاصمة العثمانية تؤكد استنتاجنا هذا"[٢٩].

- "إن مسألة تقهقر الإسلام بنت ألف عام أو أكثر". (السيد الفراتي)

والقرينة الزمنية هنا تشير – كما يرى أيضًا د. عمارة – إلى بدء فترة سيطرة العناصر غير العربية على مقدرات الدول العربية في أواخر الدولة العباسية[٣٠]، ففيها تمهيد ضمني للدعوة التي يتبناها المؤتمر بتمكين العنصر العربي من أمر الخلافة.

ومثل ذلك الإحالة الزمانية في المقتبس التالي:

- "وقد قام لهؤلاء المدلسين أسواق في بغداد ومصر والشام وتلمسان قديمًا، ولكن لا كسوقها **في القسطنطينية منذ أربعة قرون إلى الآن**، حتى صارت فيها هذه الأوهام السحرية والخزعبلات كأنها هي دين معظم أهلها، لا الإسلام؛ وكأنهم لما ورثوا عن الروم الملك، حرصوا على أن يرثوا طبائعهم أيضًا". (المحقق المدني)

إذ تتضافر القرينة الزمنية مع القرينة المكانية، لتشير بشكل تقريبي إلى بداية بزوغ قوة الدولة العثمانية بما تحمله من توجه ديني، واتساع نفوذها على البلاد الإسلامية؛ تقريبًا منذ عهد السلطان "سليمان القانوني" الممتد ما بين عامي ٩٢٦ و٩٧٤ هـ.

ج. قرائن تناصية:

وأعني بها التعريض بذكر قرينة من قول شخص ما، لأجل الإشارة إلى صاحبها دون التصريح به، كما يرد في المثال التالي:

- "... وبإنشاد مقامات شيوخية، تغالوا فيها بالاستغاثة بشيوخهم والاستمداد منهم بصيغ لو سمعها مشركو قريش لكفروهم، لأن أبلغ صيغة تلبية كانت لمشركي قريش قولهم: "لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك غير شريك واحد، تملكه وما ملك"، وهذه أخف شركًا من المقامات الشيوخية التي يهدرون بها إنشادًا بأصوات عالية مجتمعة، وقلوب محترقة خاشعة كقولهم:

عبد القادر يا كيلاني يا ذا الفضل والإحسانِ
صرت في خطب شديد من إحسانك لا تنساني

وقولهم:

اللهم يا رفاعي إِني أَنا المحسوب أَنا المنسوب
رفاعي لا تضيعني أَنا المحسوب أَنا المنسوب

إِلى نحو ذلك مما لا يشك فيه شاك أَنه من صريح الإشراك الذي يأباه الدين الحنيف".

فمرة أخرى يُعرِّض الكواكبي بشخص معين هو أبو الهدى الصيادي؛ عن طريق إيراد أحد الأقوال المنسوبة له على سبيل الاستهجان، بل الرمي بالشرك. يؤكد هذا العقاد إذ يقول إن هؤلاء الجهلاء الذين يهاجمهم الكواكبي كانوا "يستمدون دعاءهم من كتاب "قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر" الذي يؤلفه الصيادي أو يأمر بتأليفه وينشره وينشر معه التصانيف من قبيله عن "فرحة الأحباب في أخبار الأربعة الأقطاب" و"الجوهر الشفاف في طبقات السادة الأشراف" و"ذخيرة المعاد في ذكر السادة بني الصياد"، إلى غيرها من كتب المنثور والمنظوم في أشباه هذه الترهات"(٣١).

٢ – الاحتراز والملطفات:

والملطفات هي أساليب لغوية تتدرج في إطار "آداب المعاملة"، وتستعمل في محاولة تخفيف ما يذهب بماء الوجه بين أطراف الخطاب؛ كالأوامر والانتقادات والدحض...، وتتنوع تلك الأساليب تنوعًا كبيرًا؛ فمنها أساليب معجمية، وأخرى صرفية تركيبية، وأخرى تنغيمية، وأخرى إيمائية(٣٢).

وتحقق هذه الأساليب غرض المواربة؛ بفعل مساحة الاحتراز من الخطأ التي تتركها في الخطاب، عن طريق تقديم خطاب غير يقيني أو حاسم. ولا يعرف الخطاب المكتوب بطبيعة الحال من أنواع أساليب التلطيف والاحتراز تلك سوى الأساليب اللفظية، والأساليب الصرفية التركيبية، إلى جانب مجموعة من الملفوظات الاصطلاحية كالاعتذار والترضي(٣٣).

أ. أساليب احتراز لفظية:

منها الألفاظ المبهمة وغير محددة المرجع:

وأعني بها الألفاظ الدالة على عدم الشمول؛ من أمثال: بعض – غالب – أكثر... وما أشبهها، إلى جانب الموصولات، والنكرات، والجمع العام. ومن أمثلة تلك الاستعمالات في نصوص "أم القرى" ما يعود على عموم الحكام غير العرب كما في:

- "دخل في ديننا **أقوام** ذَوو بَأْس ونفاق أقاموا الاكتساب مكان الاحتساب، وحصروا اهتمامهم في الجباية وآلتها التي هي الجندية فقط". (المرشد الفاسي)
- "فإهمال الاهتمام بالدين قد جر المسلمين إلى ما هم عليه حتى خلت قلوبهم من الدين بالكلية، ولم يبقَ له عندهم أثر إلا على رؤوس الألسن، لا سيما عند **بعض الأمراء الأعاجم**، الذين ظواهر أحوالهم وبواطنها تحكم عليهم بأنهم لا يتراءون بالدين إلا بقصد تمكين سلطتهم على البسطاء من الأمة، كما أن ظواهر عقائدهم وبواطنها تحكم عليهم بأنهم مشركون ولو شركًا خَفِيًا من حيث لا يشعرون.

فإذا أضيف إلى شركهم هذا ما هم عليه من الظلم والجور، يحكم عليهم الشرع والعقل بأن ملوك الأجانب أفضل منهم وأولى بحكم المسلمين، لأنهم أقرب للعدل ولإقامة المصالح العامة، وأقدر على إعمار البلاد وترقية العباد". (المرشد الفاسي)

ومنها ما يعود على مدعي العلم في الدين، مثل:

- "وأعمال العلماء قيامهم في الأمة مقَام الأنبياء في الهداية إلى خير الدنيا والآخرة. ولا شك أَن لمثل هذا المقام في الأمة شرفًا باذخًا يتعاظم على نسبة الهمم في تحمل عنائه والقيام بأعبائه. **فبعض ضعيفي العلم وفاقدي العزم** تطلعوا إِلى هذه المنزلة التي هي فوق طاقتهم، وحسدوا أهلها المتعالين عنهم، فتحيلوا للمزاحمة والظهور مظهر العلماء العظماء بالإغراب في الدين وسلوك مسلك الزاهدين". (المحقق المدني)
- "ولا ريب أَن **التسعين في المائة** من العلماء المتبحرين لا يحسنون قراءة نعوتهم المزورة، كما أَن **الخمسة والتسعين** من أولئك المتورعين، رافعي أعلام الشريعة والدين، يحاربون الله جهارًا، ويستحقون ما يستحقون من الله وملائكته والمؤمنين". (المولى الرومي)
- "وهؤلاء قضاة القسطنطينية على عهدنا، **أكثرهم** لا يعرضون لحضرة السلطان المعظم نصب خطيب لإقامة الجمعة، ولا ينصبون وَصِيًا على أبله أَو مختل العقل أو مسرف فاسد التدبير، ولا يعزلون متوليًا أو وصيًا لخيانة في مال الوقف أَو اليتيم، ولا يقضون في مسألة خلع زوجة، ولا يسمعون بينة تَوَاتر؛ إِلَى غير ذلك من قضايا وأحكام شرعية كثيرة لا يجوز شرعًا ولا إدارة إهمالها، ولا حجة لهم في ارتكاب إِثم تعطيلها غير مجاراة الأوهام". (المولى الرومي)
- "فَمنهم **الذين** استبدلوا الأصنام بالقبور[٣٤]، فبنوا عليها المساجد والمشاهد...". (العالم النجدي)
- "ومنهم **من** استعوضوا ألواح التماثيل عند النصارى والمشركين بألواح فيها أَسماء معظميهم...". (العالم النجدي)

فمن الملاحظ في هذه الأمثلة وما ماثلها أن المحتوى الذي يُنسب إلى مراجع تلك الألفاظ يحمل تهمًا غير هينة؛ مما استدعى الاحتراز بعدم نسبتها لا إلى أشخاص معينين، ولا إلى عموم المشتركين في الصفة.

ومن أساليب الاحتراز اللفظية أيضًا الألفاظ مخفِّفَة الدلالة:

ومثلها المقتبسات التالية من نص قانون الجمعية المثبت في محضر الاجتماع الثاني عشر من مؤتمر أم القرى؛ إذ يلاحظ عند ذكر مطالب الجمعية من الأمراء أصحاب السلطة العليا؛ أن الكواكبي يستخدم كلمتي "السعي" و"التوسل". أما "السعي" فيعني القصد إلى الشيء وطلبه[٣٥]؛ وهو لفظ محايد في إيحائه بالضعف أو القوة، وأما "التوسل" فيعني التقرب لالتماس العون، وفي دلالته إيحاء بضعف المتوسل وطلبه العطف[٣٦].

يقول:

- "**السعي** لدى أُمراء الأمة بمعاملة كافة طبقات العلماء معاملة الأطباء، أَي بالحجر رسمًا على من يتصدر للتدريس والإفتاء والوعظ والإرشاد ما لم يكن مُجَازًا".

- "**التوسل** لدى الأمراء أَن يعطوا لأحد العلماء الغيورين في كل بلدة صفة محتسب ديني".
- "**التوسل** لنيل العلماء ما يستحقون من رزق وحُرمة، ومنعهم عن كل ما يخل بصفتهم وشرفهم".
- "**التوسل** لحمل أهل الطرائق على الرجوع إِلى الأصول الملائمة للشرع والحكمة في الإرشاد وتربية المريدين".
- "**تسعى** الجمعية بعد مُضِي ثلاث سنين من انعقادها في إقناع ملوك المسلمين وأمرائهم لعقد مؤتمر رسمي في مكة المكرمة".

لكن نص القانون حين يأتي على ذكر مطالب الجمعية من "العلماء" – وهو اللفظ المستخدم في نص القانون، بعيدًا عن وصفهم بالجهلاء أثناء المداولات – يستعمل لفظ "الحمل"، و"حمل فلانًا على الشيء" أي أغراه به وأجبره على فعله(٣٧)، ففيه إيحاء بالقوة لا بالضعف.

- "**حمل** العلماء والمرشدين وجمعيات الاحتساب على السعي لإرشاد أفراد الأمة".
- "تعتني الجمعية في **حمل** العلماء وجمعيات الاحتساب على تعليم الأمة ما يجب عليها شرعًا من المجاملة في المعاملة مع غير المسلمين".

وهذا يعني أن صياغة قانون الجمعية لجأت إلى تحوط أكثر في صيغ مخاطبة الأمراء؛ بهدف أمن البطش. فبالرغم من قوة المطالب وخطر دعوة الجمعية على السلطة، عمد الكواكبي إلى حفظ مسافة الاحترام الرسمية تجاه أصحابها.

كذلك من الأساليب اللفظية للاحتراز الملفوظات الموجِّهة(٣٨):

وهي من الملطفات ومن أمثلتها:

- "**وفيما أتصور** أن بلاءنا من تأصل الجهل في **غالب** أمرائنا المترفين، الأخسرين أعمالا، الذين ضلوا وأضلونا سواء السبيل وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا". (الحكيم التونسي)
- "**إني أرى** أن السبب الأكبر للفتور هو تكبر **الأمراء** وميلهم للعلماء المتملقين المنافقين". (الإمام الصيني)

ب. أساليب احتراز تركيبية:

وهي الأساليب التي تربط تحقق المحتوى المذكور بقيد ما؛ فلا يتضح من استخدامها هل تحقق المحتوى أم لا؛ إذ لا يصرح بتحقق القيد من عدمه. من أمثلة ذلك:

الشرط:

- " كأن مجرد كون الأمير مسلمًا يغني عن كل شيء حتى عن العدل، وكأن طاعته واجبة على المسلمين، وإن كان يخرب بلادهم ويقتل أولادهم ويقودهم ليسلمهم لحكومات أجنبية". (المولى الرومي)

- "فالملك **إذا تغرر** وتنزل للتداخل في أُمور السياسة أَو الإدارة الملكية أَو الأمور الحربية أَو القضاء، فلا شك أنه يكون كربٍّ بيت يداخل طباخه في مهنته ويشارك بستانية في صنعته، فَيفسد طعامه ويبور بستانه، فيشتكي ولا يدري أن آفته من نفسه". (السيد الفراتي)

إذ لم يقل صراحة أن الملك يخرب البلاد ويقتل الأولاد ويقود البلاد للاحتلال، أو أنه يتدخل في أمور الإدارة، ولكنه استخدم حرفي الشرط "إن" و"إذا" الدالين على الشك.

القصر:

- "وهؤلاء الذين نسميهم عندنا بالحكماء هم الذين يطلق عليهم في الإسلامية اسم أهل الحل والعقد، الذين **لا تنعقد** شرعًا "الإِمامة" **إلا** ببيعتهم".

كذلك استعمل صيغة القصر بالنفي والاستثناء، فانعقاد الإمامة مقيد ببيعة أهل الحل والعقد، وانتفاء الثانية يعني بطلان الأولى، لكن أسلوب القصر لا يوضح ما إذا تحققت بيعتهم لمن تصدى لإمامة المسلمين في زمن القول أم لا.

٣- تمويه جهة الفاعلية:

ويُلجأ إلى هذه التقنية من أجل إخفاء الفاعل الحقيقي أو المتسبب الحقيقي في الفعل[٣٩]، فيعد مسكوتًا عنه ولا يكون المرسل قد وجه إليه اتهامًا صريحًا. ومن وسائل تحقيق هذا التمويه في الكتاب:

التحويل الاسمي:

حيث يلجأ إلى استعمال المصدر بدلًا من الفعل؛ فتنتفي الحاجة لذكر الفاعل، كما في الأمثلة:

- "واتخذت لي دارًا في حي متطرف في مكة، مناسبة لعقد الاجتماعات بصورة خفية، ومع ذلك استأجرتها باسم بواب داغستاني روسي لتكون مصونة من **التعرض** رِعاية للاحتياط". (السيد الفراتي)
- "وعندي أَن البلية **فَقدنا** الحرية". (المولى الرومي)
- "والحاصل أَن **فَقدنا** الحرية هو سبب الفتور والتقاعس". (المولى الرومي)
- "وعندي أَن داءنا الدفين: **دخول** ديننا تحت ولاية العلماء الرسميين، وبعبارة أخرى تحت ولاية الْجُهَّال المتعممين". (المولى الرومي)
- "وهم المقربون من الأمراء على أنهم علماء **وارتباط** القضاء والإمضاء بهم". (المولى الرومي)
- "ويخيل إليّ أَن سبب هذا الفتور، الذي أخل حتى في الدين، هو **فقد** الاجتماعات والمفاوضات؛ وذلك أن المسلمين في القرون الأخيرة قد نسوا بالكلية حكمة تشريع الجماعة والجمعة وجمعية الحج". (السعيد الإنكليزي)

وكذلك جاءت أسباب الفتور في الأمة التي يوردها "السيد الفراتي" في كلمته عبر صيغ مصدرية، ومنها أسباب دينية، وأخلاقية، وسياسية، وإدارية. منها على سبيل المثال:

- "**حرمان** الأمة من حرية القول والعمل، **وفقدانها** الأمن والأمل".
- "**فقد** العدل والتساوي في الحقوق بين طبقات الْأمة".
- "**التزام** تولية بعض المناصب المختصة ببعض الأصناف كالمشيخة الإسلامية والسرعسكرية لمن يكون منفورًا في صنفه من العلماء أَو الجند، لأجل أن لا يتفق الرئيس والمرؤوس على أمر مهم".
- "**التمييز** الفاحش بين أجناس الرعية في الغنم والغرم".

البناء للمجهول:

وفيه إخفاء تام للفاعل، ومن أمثلته:

- "وما أدرانا ما الحرية؛ هي ما **حُرِمنا** معناه حتى نسيناه، **وحُرِّم** علينا لفظه حتى استوحشناه". (المولى الرومي)
- "فإن هؤلاء المتعممين في البلاد العثمانية كانوا اتخذوا لأنفسهم قانوناً سموه "طريق العلماء"، وجعلوا فيه من الأصول ما أنتج، منذ قرنين إلى الآن، أن يصير العلم منحة رسمية **تُعطى** للجهال، حتى للأميين، بل وللأطفال". (المولى الرومي)

الإسناد إلى كيان اعتباري أو مجازي:

وهذا النوع يوجه في نصوص الكتاب إلى غرضين للمواربة؛ فهو أولًا يسهم في تجنب توجيه اتهام مباشر، كما في التحويل الاسمي والبناء للمجهول، مثال ذلك:

- "لما وضع "قانون العدلية" تهافت المتعممون على جعل قاضي المسلمين رئيسًا **للمحكمة النظامية، التي تحكم** بما لم ينزل الله وبما يتبرأ الدين الحنيف منه". (المولى الرومي)
- " التزام المخالفة الجنسية في استخدام العمل بقصد تعسر التفاهم بين العمال والأهالي وتعذر الامتزاج بينهم **لتأمن الإدارة** غائلة الاتفاق عليها". (السيد الفراتي)

وهو إلى جانب هذا يوظف في التمويه على مسئولية مرسل مفرد بعينه عن محتويات سجل الجمعية، حين ترد استعمالات من قبيل: "**انتظمت الجمعية**" و"**آثرت الجمعية**".

تحويل وجهة الفعل:

وأبرز ما يرد في ذلك الحديث عن علاقة رجال الدين الذين يعدهم الكواكبي "جهلاء" بالحكام والسلاطين، فاتجاه الفعل غالبًا ما يكون من العلماء إلى السلاطين، يقول:

- "**وهؤلاء الغشاشون يغرون حضرة السلطان** على هذه الدعوى بما يهرفون به عليه، وبما يؤلفونه هم وأعوانهم من الكتب والرسائل التي يعزون بعضها لأنفسهم، وبعضها لغيرهم من المنافقين أو لأسماء يسمونها أو كتب يختلقونها". (الأمير)

- "ويضرب على فم بعض الغشاشين المتملقين الخائنين، **الذين ينسبون حضرته** إلى ما لم ينتسب هو إليه؛ ويشيعون عنه دعوى ما ادعاها قط أحد من أجداده العظام بوجه رسمي". (الأمير)

٤ – المفارقة:

وهي صيغة من التعبير، تفترض من المخاطب ازدواجية الاستماع؛ بمعنى أن يدرك في التعبير المنطوق معنى عرفيًا يكمن فيه من ناحية، ويدرك من ناحية أخرى أن هذا المنطوق – في هذا السياق بخاصة – لا يصلح أن يؤخذ على قيمته السطحية؛ بل يرمي إلى معنى آخر، يحدده الموقف التبليغي، وهو معنى مناقض عادة للمعنى العرفي الحرفي"(٤٠).

وأبرز نوعين للمفارقة في الكتاب هما:

المفارقة اللفظية:

وهي شكل من أشكال القول يساق فيه معنى ما، في حين يقصد منه معنى آخر يخالف غالبًا المعنى السطحي الظاهر، وتشتمل على عنصر يتعلق بالمغزى أو الفعل الإنجازي هو مقصد القائل. وتشتمل كذلك على عنصر لغوي أو بلاغي هو عملية عكس الدلالة، ويتمثل هذا العنصر في شكل المغايرة(٤١). ومن أمثلتها:

- "على أن لبقية الأقوام أيضًا خصائص **ومزايا** تجعل لكل منهم مقامًا مهمًا في بعض وظائف الجامعة الإسلامية، مثل أن معاناة حفظ الحياة السياسية، ولا سيما الخارجية، متعينة على الترك العثمانيين". (من القرارات)

ويحقق هذا المنطوق مفارقة لفظية تصنعها كلمة "مزايا" عند النظر إلى المضمون المذكور في هامش الكواكبي نفسه؛ أي هامش سجل المؤتمر؛ إذ يقول: "لأنهم متقنون فن الديبلوماتيك، أي المراوغة في المقال والتلون في الأحوال".

فما ذكره حقيقةً لا يمكن عده مزية على دلالة الكلمة الرائجة التي تحمل إيحاء إيجابيًا، فالمزية فضيلة يمتاز بها الإنسان على غيره(٤٢).

- "إذا صادفت الجمعية معارضة في بعض أعمالها من حكومة بعض البلاد التي هي تحت استيلاء الأجانب، فالجمعية تتذرع أولًا بالوسائل اللازمة لمراجعة تلك الحكومة وإقناعها بحسن نية الجمعية، فإذا وفقت لرفع التعنت فيها وإلا فتلجأ الجمعية إلى **الله القادر** الذي لا يعجزه شيء".

فلفظ الجلالة هنا يحقق مفارقة واسعة عن العجز الظاهر من أسلوب المنطوق؛ فقوة الله هي قوة غيبية قادرة لا حدود لمقدرتها من ناحية، ومن ناحية أخرى سبق في الكتاب مناقشات في رفض الفكرة الجبرية؛ مما يعني أن مفهوم اللجوء إلى الله في حد ذاته منفتح على اتخاذ ردود فعل قد تتعدد أشكالها.

ومن المفارقة اللفظية كذلك الاستثناءات التي تفتح الطريق أمام كسر القاعدة الأولى المستثنى منها، وفقًا لتعدد التأويلات الممكنة للمستثنى، مثل:

- "الجمعية لا تتداخل في الشؤون السياسية مطلقا **فيما عدا** إرشادات وإخطارات بمسائل أصول التعليم وتعميمه".
- "مظهر الجمعية: العجز والمسكنة، فلا تقاوم ولا تقابل إلا بأساليب النصيحة والموعظة الحسنة، وتلاطف وتحامل جهدها من يعادي مقاصدها، ولا تلجأ إلى الإلجاء **إلا في الضروريات**".

مفارقة الحكاية أو الإيهام:

هنا تختار المفارقة من اللفظ ما يحاكي زعم المخاطَب، ويوهم بأنه حقيقي ومقرر؛ في الوقت الذي تزدريه وتسخر به. ويعني ذلك أن اللفظ الذي تختاره المفارقة له معنيان: أحدهما قريب توهم به المفارقة بصحة المعتقد، والآخر بعيد تنقض به المفارقة هذا المعتقد وتنفيه(٤٣).

ويرد هذا النوع من المفارقة أساسًا عند حكاية الألقاب والمصطلحات المعظمة التي كانت تطلق على السلطان ودولته، في حين يكون من الواضح أن المتلفظ غير مقتنع بها، كما في:

- "صرف السلطان قوة سلطنته كلها في سبيل حفظ **ذاته الشريفة** وسبيل الإصرار على سياسة الانفراد". (السيد الفراتي)
- "ولو أن **حضرة السلطان المعظم** أخذ عليه تأييد الدين بما أمده الله به من القوة المادية بدون استناد إلى صبغة معنوية، لتمكن من أن يخدم دينه وملكه حقًا خدمات مقبولة عند الله ورسوله مشكورة عند المؤمنين كافة". (الأمير)
- "إنما تقدمت **الدولة العلية** العثمانية بعض خطوات في ميدان المدنية والعمران مدفوعة بأيدي المرحومين محمد علي وإبراهيم وفاضل وكامل وغيرهم من الأمراء حتى والأميرات المصريات". (الأستاذ الرئيس/المكي)
- "وَأما **سلاطين آل عثمان الفخام**، فإني أذكر لك أنموذجًا من أعمال لهم أتوها رعاية للملك، وإن كانت مصادمة للدين". (الأمير)

٥ – الاقتباس:

للتناص وإيراد الاقتباسات في الخطاب وظائف متعددة؛ تتنوع بين قيمة المنطوق الحجاجية وأثره الجمالي وتوجيهه في أغراض عدة؛ كالتعريض مثلا كما سبق. لكن قيمته بوصفه عنصر مواربة في الخطاب تنبع من قدرة المنطوق المقتبس على استرجاع سياقه الأصلي واستدعائه إلى السياق الجديد الذي يرد فيه(٤٤)، وهذا يتيح للمرسِل أن يقحم في نصه دلالات وإسقاطات ومقارنات متعددة دون أن يتلفظ بها فعليًا، فيحتفظ لنفسه بحق إنكارها إن تطلب الأمر.

وتعد نماذج الاقتباس لدى الكواكبي من النماذج شديدة الوضوح في هذا الشأن، من ذلك توظيفه للمقتبسين التاليين من شعر المتنبي:

- لم أر مثل جيراني ومثلي لمثلي عند مثلهم مقَام

بأَرض ما اشتهيت رأَيت فيها فليس يفوتها إلا الكرام

- إنما الناس بالملوك وهل يفلح عرب ملوكها عجم

وكلا الاقتباسين قد جاءا على لسان السيد الفراتي، الأول عند تعريضه ببلدة القسطنطينية التي لم يطل البقاء فيها، والثاني عند إثارته لفكرة عدم الانسجام أو التوافق بين الحكام الأتراك ومحكوميهم من العرب.

وبالرجوع إلى سياق الأبيات المذكورة للمتنبي، يتضح أن كلتا القصيدتين قالهما المتنبي في فترة سخطه من تصدع الخلافة العباسية والأوضاع التي وصلت إليها بلاد العرب؛ بعد أن ملكتها الموالي من الترك والديلم وغيرهم ممن كانوا أول أمرهم بمنزلة العبيد(٤٥).

أما المقتبس التالي فهو من الآية القرآنية رقم ٣٥ من سورة الأنفال، يقول على لسان المحقق المدني:

"ولأن التعبد باللهو واللعب أهون على النفس والطبع من القيام بتكليفات الشرع، كما وصف الله تعالى عبادة مشركي العرب فقال: {وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية} أي صفيرًا وتصفيقًا، هؤلاء جعلوا عبادة الله تصفيقًا وشهيقًا وخلاعة ونعيقًا".

ففي الروايات عن سياق الآية أن بعض المشركين من بني عبد الدار سدنة الكعبة كانوا يفعلون هذا صدًا للنبي – صلى الله عليه وسلم – وسخرية من صلاته(٤٦)، فكأنه هنا ينقل سياق موقف الآية إلى سياق حديثه، فيتهم ضمناً ممارسي تلك الشعائر التي يرفضها بمعاداة الإسلام والصد عنه، وبهذا يحقق أيضًا استلابًا ضمنيًا لشعار حماية الإسلام الذي يتبنونه ظاهريًا، وهذا دون أن يصرح في الواقع بشيء من هذا.

الخاتمة:

لا يدعي هذا البحث أنه جاء على ذكر كل ما يمكن إدراجه تحت عنوان "المواربة" في كتاب "أم القرى"، لكنه حاول استخلاص أبرز مظاهرها وتحليلها؛ على مختلف مستويات الخطاب: التواصلية، والتنظيمية، والأسلوبية.

وربما أمكن من خلال ذلك التحليل الخروج بمجموعة خلاصات، كالتالي:

١. توجه المواربات في كتاب "أم القرى" إلى مقصدين رئيسين؛ أولهما: التخفيف من حدة الانتقادات الموجهة إلى السلطات؛ خاصة تلك التي تبدو ذات طابع شخصي، مع الاحتفاظ بحق توجيهها والإسهاب في تفاصيلها أحيانًا.

وثانيهما: تفريق المسئولية عن أفكار الكتاب الممثلة في المؤتمر الذي يعرضه؛ بحيث لا يتحملها فرد واحد، أو أفراد معروفين، بل تصور بوصفها مطالب الغيورين على الإسلام من كل مواطنه.

٢. المواربة في الاعتراضات الموجهة إلى شيوخ الدين المقربين من السلاطين تعتمد على الإسهاب والتفصيل في النقد؛ مع تغييب الأشخاص المقصودين منه. أما المواربة في الاعتراضات الموجهة إلى السلطات مباشرة فتعتمد أساسًا على التبرئة الظاهرية للحكام، ونسبة الممارسات موضع النقد إلى حاشيتهم ومن اتبعهم، أو التمويه على نسبتها والسكوت عن فاعلها.

٣. احتفظ الكواكبي لصوته الخاص (صوت السيد الفراتي) من بين أعضاء المؤتمر، بأكبر قدر من الصراحة والوضوح وأقل قدر من المواربات. وربما كان السبب في هذا حرصه على المحيطين به في الواقع من بطش السلطات إن وقع، وربما أيضًا كان محض انجراف وراء الشخصية الخيالية التي جعلها بطل كتابه.

***

المصادر والمراجع:

أولًا: المصادر والمراجع العربية:

١. ابن الأثير: جوهر الكنز، تحقيق: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية.

٢. أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨.

٣. براون ج. ب. و يول ج.: تحليل الخطاب، ترجمة محمد لطفي الزليطني ومنير التريكي، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٩٧.

٤. تابييرو، نوربير: الكواكبي المفكر الثائر، ترجمة: علي سلامة، منشورات دار الآداب، بيروت، ط٢، ١٩٨١.

٥. شارودو، باتريك ومنغنو، دومينيك: معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القادر المهيري وحمادي صمود، دار سيناترا، تونس، ٢٠٠٨.

٦. ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤.

٧. عباس محمود العقاد: الرحالة "كاف" – عبد الرحمن الكواكبي، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة ١٩٥٩.

٨. عبد الرحمن الكواكبي: الأعمال الكاملة، تحقيق: محمد عمارة، دار الشروق، ط٣، ٢٠١٤.

٩. عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب – مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠٠٤.

١٠. فان دايك، تون أ.: علم النص – مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة: سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، ط١، ٢٠٠١.

١١. ماجدة حمود: عبد الرحمن الكواكبي – فارس النهضة والأدب، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١.

١٢.محمد العبد: المفارقة القرآنية: دراسة في بنية الدلالة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٦.
١٣.محمود محمد شاكر: المتنبي – رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، مطبعة المدني/القاهرة، دار المدني/جدة، ١٩٨٧.
١٤.المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية/ مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط ٤، ٢٠٠٤.
١٥.منتصر أمين عبد الرحيم: تداولية الاقتباس – دراسة في الحركة التواصلية للاستشهاد، دار كنوز المعرفة، عَمَّان، ط١، ٢٠١٣.
١٦.يحيى بن حمزة العلوي: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ٢٠٠٢.

ثانيًا: المراجع الأجنبية:

1. Bavelas, Janet Beavin, et al. Political Equivocation: A Situational Explanation, Journal of Language and Social Psychology, 1988, 137-145.
2. Bavelas, Janet Beavin, et al. Truths, Lies, and Equivocations: The Effects of Conflicting Goals on Discourse. Multiple Goals in Discourse, 1990, 135-161.
3. Fairclough, Norman. Language and Power, London, Longman. 10th ed., 1996.

الهوامش:

[1] – ابن الأثير: جوهر الكنز، تحقيق: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، صـــ٢٥.

[2] – Bavelas, Janet Beavin, et al.: Political Equivocation: A Situational Explanation. Journal of Language and Social Psychology, 1988, pp. 137- 138.

[3] – Bavelas, Janet Beavin, et al.: Truths, Lies, and Equivocations: The Effects of Conflicting Goals on Discourse, Multiple Goals in Discourse, 1990. p. 135.

[4] – عبد الرحمن الكواكبي: الأعمال الكاملة، تحقيق: محمد عمارة، دار الشروق، ط٣، ٢٠١٤، صـــ٧٧. (مقدمة التحقيق)

[5] – تابييرو، نوربير: الكواكبي المفكر الثائر، ترجمة: علي سلامة، منشورات دار الآداب، بيروت، ط٢، ١٩٨١، صـــ٩.

[6] – راجع تفصيلا لهذه القضية في: عباس محمود العقاد: الرحالة "كاف" – عبد الرحمن الكواكبي، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة ١٩٥٩، صـــ٦٤.

[7] – السابق صـــ ٧٩.

[8] – عبد الرحمن الكواكبي: الأعمال الكاملة، صـــ٧١ ،٧٥، ٧٦. (مقدمة التحقيق)

[9] – راجع الآراء المختلفة في هذا الشأن في:
تابييرو، نوربير: الكواكبي المفكر الثائر، صـــ٥٧-٦٠.

[10] – راجع: شارودو، باتريك ومنغنو، دومينيك: معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القادر المهيري وحمادي صمود، دار سيناترا، تونس، ٢٠٠٨، صـــ ٣٤٠.

[11] – عباس العقاد: الرحالة "كاف"، صـــ٧٥.

[12] – تابييرو، نوربير: الكواكبي المفكر الثائر، صـــ٥٥، ٥٦.

[13] – عباس العقاد: الرحالة "كاف"، صـــ٧٦.

[14] – السابق، الصفحة نفسها.

[15] – فان دايك، تون أ.: علم النص: مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة: سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، ط١، ٢٠٠١، صـــ٢١٢.

[16] – السابق، صـــ ٢٢٤.

[17] – السابق، صـــ ٢٤٣.

[18] – الكواكبي: الأعمال الكاملة، صـــ٣١١.

[19] – ماجدة حمود: عبد الرحمن الكواكبي – فارس النهضة والأدب، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١، صـــ٢١.

[20] – عباس العقاد: الرحالة "كاف"، صـــ٧٥.

[21] – براون ج. ب. و يول ج.: تحليل الخطاب، ترجمة محمد لطفي الزليطني ومنير التريكي، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٩٧، صـــ١٦٢.

[22] – ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤، ج٧، صـــ٣٧٢.

[23] – يحيى بن حمزة العلوي: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ٢٠٠٢، ج١، صـــ١٩٤.

24 – عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب – مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠٠٤، صـــ٤٢٠.

25 – الكواكبي: الأعمال الكاملة، صـــ٣٧٣. (هامش التحقيق)

26 – هكذا كتبها المؤلف في كتابه، وفيها خطأ تركيبي؛ حيث إن الباء في مثل هذا التركيب تدخل على المتروك، والصواب: "استبدلوا بالأصنام القبور". وجميع الشواهد مثبتة بصياغتها في نص الكتاب دون تصحيح أو تعديل.

27 – فيها خطأ كذلك، والصواب "استعاضوا عن...".

28 – الكواكبي: الأعمال الكاملة، صـــ٣٧٩. (هامش التحقيق)

29 – السابق، صـــ٣١٥. (هامش التحقيق)

30 – السابق، صـــ٣٢٠. (هامش التحقيق)

31 – عباس العقاد: الرحالة "كاف"، صـــ٨٠.

32 – شارودو، باتريك ومنغنو، دومينيك: معجم تحليل الخطاب، صـــ ٣٠، ٣١.

33 – السابق، صـــ ٣٣.

34 – سبق التنبيه على الخطأ التركيبي في هذا الشاهد.

35 – أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨، ج٢، صـــ١٠٦٩.

36 – المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية/ مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط ٤، ٢٠٠٤، صـــ١٠٣٢.

37 – أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، ج١، صـــ٥٦٢.

38 – شارودو، باتريك ومنغنو، دومينيك: معجم تحليل الخطاب، صـــ ٣٢.

39 – Fairclough, Norman: Language and Power, London, Longman, 10th ed., 1996, pp. 124- 125.

40 – محمد العبد: المفارقة القرآنية: دراسة في بنية الدلالة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٦، صـــ١٥.

41 – السابق، صـــ ٥٤.

42 – أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، ج٣، صـــ٢٠٩٤.

43 – السابق، صـــ ٨٢.

44 – راجع تفصيلا لهذه القضية في:

منتصر أمين عبد الرحيم: تداولية الاقتباس – دراسة في الحركة التواصلية للاستشهاد، دار كنوز المعرفة، عَمَّان، ط١، ٢٠١٣، صـــ٤٦، ٤٧.

45 – محمود محمد شاكر: المتنبي – رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، مطبعة المدني/القاهرة، دار المدني/جدة، ١٩٨٧، صـــ٢٤٩، ٢٥٠.

46 – ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج٩، صـــ ٣٣٩.